التجديد عند الشيخ إبراهيم عمر بيوض
تفسيره في رحاب القرآن أنموذجا

د.سليمان بن علي الشعيلي، أ.د. مبروك المنصوري، د. إيمان الرجيبي
قسم العلوم الإسلامية، كلية التربية، جامعة السلطان قابوس

الملخص

يهتم البحث بتجديد التفسير، بمعنى إعادة النظر في النص القرآني، بحيث يستجيب لمتطلبات العصر وتطوره، ويقدم أنموذجا لمفسر عاش في القرن الرابع عشر، وشهد جانبا غير يسير من الاحداث السياسية، والتطور العلمي والتقني، فجعل من القرآن الكريم باعثا لنهضة الأمة، وعلاجا لمشكلاتها، وعرض البحث ذلك في عدة مباحث ؛ الأول فيما يخص أمور الاعتقاد، وأن العقيدة الصحيحة هي التي تثمر عملا صالحا. والثاني ما يتعلق بقضايا الأمة والمجتمع، وأن الأمة من أسباب تخلفها وانحطاطها تركها للقرآن الكريم والعمل به، والثالث: التفسير بالنظريات العلمية، وأن هذه النظريات لا يصح أن يفسر بها القرآن ما لم تثبت كحقيقة علمية، وختم الرابع بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم وأهميته في إعطاء نظرة كلية شاملة عن القضية.

الكلمات المفتاحية: التجديد. صفات الذات. الوحدة الموضوعية.

Abstract

The study is concerned with the renewal of tafsīr to the meaning of giving a new outlook on the Qur'anic text so as to conform to the exigencies of the contemporary age and its development. It presents examples of a Mufassir who lived in the 14th century AH and was an eyewitness to a number of political events and scientific and technical developments. He turned the Holy Qur'an into a starting point for the Ummah's renaissance, and a treatment for its problems. The study is divided into a number of chapters; the first dealing with matters of I'tiqād, and that the correct 'aqīdah results in upright actions. The second chapter is concerned with vital questions related to the Ummah and society, and that leaving the Holy Qur'an and acting upon it is one of the reasons of the backwardness and decline of the Ummah. The third chapter deals with tafsīr on the basis of scientific theories, and that these theories are not suitable for Qur'anic exegesis as long as they have not been established as scientific facts. The fourth chapter concludes with an outlook on thematic exegesis of the Holy Qur'an and its importance in offering a comprehensive point of view on any case that is subject to study.

تمهيد : معنى التجديد وأهميته

مر التشريع الإسلامي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بمراحل مختلفة تأثر فيها بالحالة السياسية سلبا أو إيجابا. ولا شك إن كل نظام سياسي يفرز تصورا لفهم النصوص الشرعية، إذ الحالة العلمية والثقافية في الغالب تتبع الحالة السياسية قوة وضعفا. هذا وقد مر بالمسلمين فترات من الضعف أو الطغيان كان لها أثر بارز على جمود الانتاج العلمي، أو جعله خادما للسياسة مما انعكس بدوره على قدرة النصوص على مواكبة أحداث العصور وتطورات البشرية، فانطمس ما كان بارزا من معالمها، وخفي ما كان ظاهرا من دلائلها، فكان "تجديد الدين إنما يعنى نصب ما اندرس من معالمه وإظهار ما خفي من دلائله، والكشف عما انكتم من جماله واعتداله، وتقوية اثره في حياة الناس الفكرية والعملية والأخلاقية"[1]

ويرى المودودي أن صور الإسلام النقية قد شوهت بفعل الأنظمة السياسية، استعمارية كانت أو متغلبة، وعليه فإن التجديد الديني –عنده- يعني: تغيير الصورة التي ألفها المسلمون وغيرهم عن دينهم وتطهيره من أدناس وقيم وأنظمة أخرى علقت به وتحكمت في المسلمين طويلا والعود بهم سريعا إلى خط الإسلام الواضح ونظامه المقرر في نظرته إلى الحياة الإنسانية وتصوره لمعين الإنسان والكون الذي يعيش فيه"[2]

هما إذن نظرتان مختلفتان بينما يرى المودودي أن حقيقة التجديد في تنقية الإسلام مما علق به وشوه صورته، يذهب الرأي الأول إلى أنه تفعيل للنص وإحيائه واستلهام معانيه التي تتسع لكل جديد، وتستوعب كل عصر، وتعالج شئون الحياة بمختلف أبعادها وتشعباتها. وهذا في رأي العلامة الخليلي يشتمل على نوعين: "تجديد في مجال الدعوة والإصلاح بمحاربة البدع وقمع الفساد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وتجديد في مجال الإفتاء والفقه... بالإضافة إلى تطوير وسائله التي تدعو إليه وتبلغ رسالته وتكشف مضامينه وتظهر حججه ودلائله وتدفع عنه الشبه اليت يحيكها أعداؤه..."[3]

وهذا المعنى هو الذي يتناسب مع موضوعنا فتجديد التفسير كما عرفه شريف هو: "استلهام النص القرآني لإدراك كل معطياته التي ترسم من خلال القرآن الكريم المثل العليا للمسلم في حياته الفردية والجماعية ومن ثم النهوض بالمجتمع المسلم والاستجابة لمتطلباته في الحياة اليومية[4].

ذلك أن طريقة المفسرين القديمة التي تهتم بتحليل الألفاظ وتراكيب الآيات، لم تعد ذات جدوى في خضم التطورات المتسارعة الهائلة التي تشهدها الحياة، وكثرة الصوارف عن الله ودينه، إذ أن "أكثر ما روي في التفسير بالمأثور –كما يقول صاحب تفسير المنار- حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سندا ولا موضوعا، كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى..... فكانت الحاجة

---

[1] الخليلي، احمد بن حمد، **بيان أثر الاجتهاد والتجديد في تنمية المجتمعات الإسلامية**، وزارة ألأوقاف والشئون الدينية، سلطنة عمان، ص 70

[2] شريف، ابراهيم، **اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر**، دار التراث، القاهرة، ط1، 1982م، ص 147، نقلا عن المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ص 16-17

[3] الخليلي، أحمد بن حمد، أثر الاجتهاد والتجديد في تنمية المجتمعات.. ص 71

[4] شريف، ابراهيم، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، ص 7

شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح"

وأيضا فإنّ التجديد في التفسير يقتضيه الخطاب القرآني من حيث هو خطاب يحاور جميع الأمكنة، ويتفاعل مع جميع الأزمنة، فهو خطاب ممتد لا يتقيد بزمان ولا بمكان....وهو ما أهله لان يكون خطابا متجددا باستمرار..."[1]

على أن التجديد في التفسير لا يعني الإتيان بتفسير لم يسبق إليه وإلغاء كل ما ورد في التفاسير السابقة وإنما هو مواكبة المفسر لقضايا عصره، وإسهامه في إصلاح أوضاع المجتمع الفاسدة وإظهار المقاصد القرآنية والقيم العليا التي ترتقي بأخلاق الناس وتهذب سلوكهم، أي أن التجديد هو تجديد الفهم لمعاني ألفاظ الكتاب العزيز، ويقصد بتجديد الفهم إرجاع المعنى الذي استفيد من النص، وهو غير صواب، إلى وجهه الصواب, حتى كأنه كما كان أول مرة جديدا لم يطرأ عليه تغيير"[2]

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن هذ التجديد مهما كانت اشكاله واتجاهاته يجب أن يجعل النص القرآني هو الأصل الذي تدور عليه رحاه، ومنطلقا لعلاج قضايا العصر ومشكلاته "وهذا من شانه أن يمنح للنص القرآني امتدادات واسعة في اشتغال المعنى وحضوره في مختلف الأزمنة،والأمكنة، وامتداداته الزمانية والمكانية... وهو ما يؤهل القرآن الكريم، لأن يكون له حضور قوي، في تفاعله المستمر، واليومي مع المستجدات والطوارئ التي تطرأ على الحياة البشرية باستمرار".[3]

هذا ويعد الشيخ محمد عبده رائد مدرسة التجديد في التفسير في العصر الحديث. إذ من القرآن الكريم باعثا لنهضة الأمة، وجعل من التفسير وسيلة إلى هذه الغاية، ولم يشأ أن يكون تفسيره مكتوبا كالتفاسير التي قبله، ولكنه فضل أن يخاطب الناس مباشرة عبر دروسه في المسجد، وحين اقترح عليه تلميذه محمد رشيد رضا أن يكتب تفسيرًا يقتصر فيه على حاجة العصر، ويترك كلَّ ما هو موجود في كتب التفسير، ويبيّن ما أهملوه، أجابه قائلاً: «... إنَّ الكلام المسموع يؤثّر في النفس أكثر ممّا يؤثّر الكلامُ المقروء، لأنّ نظر المتكلّم وحركاته وإشاراته ولهجته في الكلام، كلّ ذلك يساعدُ على فهم مراده من كلامه... إنَّ السامع يفهم 80% من مراد المتكلّم، والقارئ لكلامه يفهم منه 20% على ما أراد الكاتب»[4]

---

[1] بنعمر، محمد، التجديد في التفسير، الأشكال الأنواع، النماذج، موقع ملتقى اهل التفسير، تاريخ المقال: 2015/7/16 تاريخ الاقتباس 2017/11/2

[2] البوزي، محمد، التجديد ومناهجه في الدراسات القرآنية، مقال منشور على موقع الدراسات القرآنية، http://www.tafsir.net/article/4356، بتاريخ 2012/12/23، تاريخ الاقتباس 2017/3/21

[3] بنعمر، محمد، التجديد في التفسير، الأشكال الأنواع، النماذج، موقع ملتقى اهل التفسير، تاريخ المقال: 2015/7/16 تاريخ الاقتباس 2017/11/2

[4] البوزي، محمد، التجديد ومناهجه في الدراسات القرآنية، مقال منشور على موقع الدراسات القرآنية، http://www.tafsir.net/article/4356، بتاريخ 2012/12/23، تاريخ الاقتباس 2017/3/21

وقد امتد أثر مدرسة المنار خارج مصر، "وكان الشيخ بيوض[1] العالم اليقظ، المنفتح على العالم الإسلامي من حوله يتابع بحرص دعوات الإصلاح التي كانت ترتفع من هنا وهناك من أطراف العالم العربي، ولا سيما حركة العلماء المصلحين في الشرق من أمثال الشيخ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ورشيد رضا، والكواكبي، وشكيب أرسلان وغيرهم ممن أعجب الشيخ بيوض بمنهجهم، وتشرب أفكارهم من خلال آثارهم وكتبهم، وقد جمعته الصدف ببعضهم مثل شكيب أرسلان الذي التقى به في الحج سنة 1929 م فكان دائم الإشادة بفكره ومواقفه.[2]

قرأ بيوض بشغف ما كتبه جمال الدين الأفغاني، وقال: "درسنا طبائع الاستبداد حرفا حرفا، وكنت أحفظ أكثره، لأنه يعبر عما في نفوسنا المكلومة، وينفس عن صدورنا المكظومة، ونحن تحت نير الاستعمار"،"[3]. كما قرأ أيضا ما وصل إلى يده من فكر الاستاذ محمد عبده، وقال يصف أثر العروة الوثقى على نفسه: ""درستها حرفا حرفا، وتركت في نفسي أثرا عميقا لمواضيعها الاصلاحية"[4].

ونظرا لتشابه الأحوال والظروف في الوطن العربي آنذاك، سلك بيوض الطريقة نفسها التي سلكها قبله الاستاذ الشيخ محمد عبده، فأنشأ له درسا اسبوعيا في المسجد يفسر فيه القرآن الكريم بلغة يفهما العامة[5]، ذلك أن مواجهة الناس والحديث إليهم عن قرب، ليس كالكتابة في الأثر والاستجابة وتحقيق

---

[1]- ولد العلامة ابراهيم عمر بيوض في 21 ابريل عام في مدينة القرارة بالجزائر عام 1899. التحق بمعهد الشيخ ابراهيم بن الحاج البريكي وحفظ القران الكريم، وهو في سن 12، ثم التحق بعد ذلك بمدرسة الشيخ الحاج عمر بن يحي.

ظهرت على بيوض علامات النبوغ، فأحبه شيخه وقربه، وكان يصطحبه في رحلاته إلى البلدان المجاورة.

أستطاع بيوض أن ينوب عن شيخه في إلقاء بعض الدروس، ثم تولى التدريس بعد وفاة شيخه وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره.

رغم صغر سنه فقد اختير عضوا في مجلس العزابة (الهيئة العليا المشرفة على الشؤون الدينية والاجتماعية في البلدة) عام 1922، ثم بعد سنتين عين شيخا يتولى مهام التدريس والوعظ في المسجد.

أنشأ معهد الشباب (عرف فيما بعد بمعهد الحياة) سنة 1925، وتولى إدارته والتدريس فيه.

أنشأ عام 1937 م جمعية الحياة الخيرية، وكانت تشرف على عدة مؤسسات منها المدرسة الابتدائية، نادي الحياة، مكتبة الحياة.

في عام 1939 اسندت إليه رئاسة مجلس العزابة نظرا لدوره الريادي في إصلاح المجتمع.

كما كانت له اتصالات وثيقة مع العلماء المصلحين في القطر الجزائري، أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي، وغيرهم، واشترك معهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931 وكان عضوا بارزا فيها.

حارب الشيخ بيوض الاستعمار الفرنسي للجزائر وتصدى له بكل جرأة وشجاعة، حتى نعته الحكام المستعمرون بـ (المشاغب)، وبـ (المهيج الخطير) ، ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية، لمدة اربع سنوات، (1940-1944)،، تفرغ خلالها للتدريس والإصلاح، ونظرا لمواقفه تلك انتخب عضوا في المجلس الجزائري عام 1948، بالاغلبية الساحقة، وأعيد انتخابه عام 1951م.

بعد استقلال الجزائر، عام 1962، أصبح رئيسا لمجلس عمي سعيد، وهو الهيئة العليا لعزابة مدن وادي ميزاب، ووارجلان، ووظل كذلك حتى وفاته في 14 يناير عام 1981م.

[2]انظر محمد ناصر، الشيخ أبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما، ص 17

[3]انظر مقدمة المحقق، 53/1

[4]انظر مقدمة المحقق، 53/1

[5] يقول محقق التفسير "لم يكن الشيخ يتكلم لغة واحدة، وإنما كان يجمع بين اللغة العربية الفصحي، واللغة الميزابية البربرية المحلية، واللغة العربية الدارجة، يفعل ذلك مضطرا حتى يوصل المعنى إلى قلوب السامعين وعقولهم، وهو مختلفون ثقافة وأعمارا، ومستويات ومواهب". ينظر تقديم الدكتور محمد صالح ناصر على تفسير سورة الإسراء، 12/1

الهدف، وقد صرح بتأثره بالإمام محمد عبده فقال: «إنّ مقصدي من هذه الدروس وغيرها هو مقصد الشيخ محمد عبده، أن أخلق عقولاً تتذوّق بلاغة القرآن، ونفوسًا فيها طهر القرآن، وتلاميذ مصلحين يكونون جند القرآن»[1].

لم يكن بيوض يريد أن يضيف رقما جديدا إلى مكتبة التفسير، يحمل اسمه ويدافع فيه عن فكر مذهبي بعينه، لكنه كان مصلحا عظيما، فجعل القرآن الكريم أعظم وسائله في الإصلاح، وقال " جعلت من تفسير كتاب الله عمدتي في الدعوة إلى الله تعالى، وكنا حربا على الاستعمار الذي يجدن شبابنا جبرا، ويمنعنا من التعليم الحر جبرا، ويعمل كل وسيلة للتعطيل، وكنا نداوره تارة، ونداريه تارة، وندافع تارة أخرى، ورأيت أن أنفع شيء لذلك هو كتاب الله فشرعت في التفسير". [2]

إن الدافع الأول لإبراهيم بيوض-كما يشير النص- من تفسيره القرآن الكريم، هو الدعوة إلى الله، ومحاربة الاستعمار ببث روح الدين وأخلاقه وتعاليمه في نفوس الشباب، والقرآن الكريم مليء بهذه الروح غير أن تفاسيره التقليدية لا تسعفه لتحقيق هذا الهدف، فأعاد قراءة القرآن بنظرة جديدة تتناسب وظروف العصر، وتعالج مشكلاته، فاشتمل التفسير (الذي سماه في رحاب القرآن)، على عدد من مظاهر التجديد سواء في الطريقة أو المحتوى كما سيتضح ذلك من المباحث التالية

المبحث الأول: التجديد في علم العقيدة

المطلب الأول: صفات الله

لم يطبع من تفسير بيوض إلا النصف الثاني من تفسير القرآن، ابتداء من سورة الإسراء، وضاع ما قبل ذلك إذ لم تكن تقنية التسجيل الصوتي قد دخلت وادي ميزاب[3] بعد. وفي هذا الجزء المطبوع من التفسير نرى أثر العقيدة ظاهرا جدا، ذلك أنه في هذه الفترة من الزمن "بدأت تدب في علم العقيدة حركة بعث وتجديد، وربما كان الدافع إليها شدة التحدي للعقيدة الإسلامية الذي ظهر في الغزو الاستعماري والثقافي الذي استهدف الأمة الإسلامية من قبل الغرب، فهذا التحدي المسلح بالفلسفة والعلم... استهدف نقض العقيدة الإسلامية من أساسها.. فتبين لبعض المفكرين والمصلحين إن الدفاع عن العقيدة الإسلامية يستلزم تجديدا في منهج هذا العلم بحيث تستعمل في الأساليب التي تقنع العقلية المعاصرة، وتكافيء في القوة الأساليب التي يستعملها الخصم في الهجوم، ولعل مبادرة الإمام محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد فتحت المجال أمام من جاء بعده من المصلحين أمثال الشيخ مصطفى صبرى، ومحمد إقبال، والعقاد، ومالك بن نبي، وغيرهم.."[4]

---

[1] دبوز، محمد علي، اعلام الاصلاح في الجزائر، 30/2

[2] مقدمة المحقق، 39/1

[3] **مزاب أو واد مزاب**، بالأمازيغية المحلية، منطقة جغرافية في شمال الصحراء الجزائرية، وتقع في ولاية غرداية، 550كم جنوب الجزائر العاصمة، وهي تغطي حوالي 8000 كيلومتر مربع، بين 32 ° و 33 ° 20' خط العرض الشمالي و 0 ° 4' و 2 ° 30 'شرق خط الطول. (https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B2%D8%A7%D8%A8)

[4] النجار، عبد المجيد، الإيمان وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط:1، 1997، ص 23 بتصرف

ولم يكن بيوض، كما أشرنا، بعيدا عن فكر هذه المدرسة، وكان يعي تماما ما جره علم الكلام من تعقيد لبعض أبواب هذا العلم خاصة فيما يتعلق بالإيمان بالله وصفاته فقرر أن يبعد هذه المسألة عما أثير حولها من جدل لم يضف إليها إلا مزيدا من التعقيد والغموض، ودعا إلى الرجوع إلى منهج السلف الصالح في وصف الله تعالى بصفات الكمال وتنزيه عن صفات النقص دون الحديث عن كيفية ذلك، وأن "كل ما يجب أن نعتقده أن لله الأسماء الحسنى، وهي صفاته، ولكن لا نعرف لها حقيقة إلا أنه اتصف بها، ويكفينا هذا. نؤمن بما أراد أن يسنده إلى نفسه من أفعال، من غير تشبيه أو تعطيل، والقانون الذي نرفعه هو قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [سورة الشورى: 11]، فوجوده ليس كوجود المخلوقات، وكذا حياته، وسمعه، وبصره، وإرادته، وحبه، وبغضه، وولايته، وعداوته، وكل شأن من شؤونه خاص به لا يشبهه شيء. وإنما الله خالق الألفاظ والعبارات، قال لنا: أنا سميع، أنا بصير، فجاءت هذه الألفاظ مشابهة للتي نستعملها، أما حقائقها فنستطيع أن نقول: إن بينها ما بين السماء والأرض، بل أبعد مما بين السماء والأرض.. فدعوا هذا الجدل وتمسكوا بمذهب السلف الذي فيه كل السلامة"

ويلح بيوض إلى أن الواجب على المسلمين العودة في مثل هذه القضايا إلى فهم السلف الأول في كل ما يتعلق بشؤون الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى، فنفوض فيها الأمر كله إلى الله ولا نحاول التفلسف لنفهم حقيقة الصفة، أهي عين الذات، أم هي زائدة عن الذات[1].

ويرى بيوض أن بعض المفسرين رام توضيح المعنى، فيما يتعلق بمسألة الصفات، فزادوه غموضا بكثرة التفصيلات حوله، وهم بذلك يحققون دون قصد، أهداف الطاعنين في الإسلام، والراغبين في تمزيق شمل المسلمين، مثال ذلك تفسير صفة الكلام، يقول:

وقد تكلم المفسرون في تكليم الله موسى فقالوا: ترى هل يسمع موسى الكلام بإذنه، كما يسمع كلام البشر؟ أم هل يسمعه من كل جوارحه؟ أم هل يأتيه من جهة واحدة؟ أم يسمعه من كل الجهات؟ كل هذا دخول فيما لا يجوز، فمن أين لنا أن نعرف؟ فالعجز عن إدراكه إدراك، والخوض في إدراكه إشراك، خاصة في مسألة الكلام التي طال فيها الجدال على أيدي أناس دخلوا الإسلام لإفساد الإسلام، وخلقوا الفتنة التي ابتلي بها كثير من الناس في زمان مضى، كما ابتلي بها البلاء الكبير التقي الورع المتمسك بالسنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

والكلام كبقية صفات الله، فالله حي عليم متكلم سميع بصير فهل تعرفون حقيقة هذه الصفات؟ كلا، وكل ذلك دخول فيما لا يعني، ووالله ما كان ينبغي ذلك الجدل، ويجب أن يطوى ولا يذكر، لأنه ما شتت المسلمين إلا هو ..!

نعلم أن الله سميع بصير، وهو الذي خلق الأسماع والأبصار، ولكن هل تعلم أن الله يسمع بآذان؟ أو يبصر بحدقة وأجفان؟ ما هذا الطمع؟ وما هذا الفساد في الفكر؟ إن الدخول في كل هذا ضلال، ولا يؤدي إلا إلى

[1] بيوض، ابراهيم بن عمر، في رحاب القرآن، تحرير عيسي بن محمد الشيخ، جمعية التراث، القرارة: الجزائر، 1424هـ/2003م، 32/12

ضلال، وكم من أناس مرقوا من الدين من أجل هذا لأنه لا مطمع في إدراك شيء منه أبدا ولو اجتمع أهل السموات والأرض"[1].

ولا يخفى أن "ما يتعلق بمسألة العلاقة بين ذات الله وصفاته، وكذلك مسألة كلام الله أقديم هو أم حادث، كل منهما احتلت حيزا كبيرا في علم العقيدة، وذلك لظروف كانت تتعلق بنشاط النصارى وسعيهم في بث مقولتهم في التثليث معارضة للتوحيد الإسلامي، مما اضطر علماء العقيدة في القرن الثاني وما بعده إلى إثارة هذه القضايا لإثبات توحيد الله وتحصين العقول أن تداخلها شبهة التثليث المسيحي، ولكن اليوم لم يبق من دواعي هاتين القضيتين وملابساتهما شيء، فأي مبرر لإدراجهما في هذا العلم.."[2]

هذا وقد كثر الجدل أيضا في الصفات التي يوهم ظاهرها التشبيه، وانقسم المسلمون حيالها إلى فرق؛ أخذ بعضهم بظاهر اللفظ دون معناه في اللغة، وأوله آخرون وفق مقتضى اللغة التي نزل بها القرآن، وفوض آخرون معناه إلى الله مع اعتقادهم أن ظاهر اللفظ غير مراد قطعا، من أمثلة ذلك معنى استواء الله على العرش.

ولما كانت اللغة لا تسعف في صفات الذات اختار بيوض تفويض معناها إلى الله دون الدخول في تفاصيلها، بيد أن الأمر قد ينطبق جزئيا على صفات أخرى مثل الاستواء، لذلك نجد بيوض يتردد بين القول في التفويض وأن " الاستواء حقيقته عند الله تعالى وهو من شئونه، لا نتكلم فيه، وإن كان البعض يفسرونه بالاستيلاء"، ثم في موطن آخر يدركه خوف من تصور العامة لهذا الاستواء بالمحسوس، فيؤوله ويقول:، وليس معنى الاستواء على الجلوس، فتعالى الله عن الحلول في الأمكنة، وإذ لا تحويه الأقطار والجهات، ليس بجسم مصور، ولا بجوهر مقدر، وإنما الاستواء هو الاستيلاء...[3]

ولا تناقض بين الأمرين فإن التفويض إنما هو جانب من التأويل، إذ المفوض يصرف اللفظ عن ظاهره لكنه لا يحدد معناه بالاستيلاء، وكلا الرأيين منزه لله تعالى عن صفات الجسمية والحلول وغيرها من صفات النقص.

بيد أن بيوض وإن اضطر إلى تأويل بعض الصفات فرارا من القول بالتشبيه، لكنه لا يفتح الباب واسعا لهذا النوع من التأويل، وإنما يشترط له شرطين:

الشرط الأول: ألا يؤدي إلى تجسيم الله تعالى، كما قالت اليهود، إن الله بدأ خلق السموات والأرض يوم الاحد، وانتهى يوم الجمعة، واستراح يوم السبت.. كما لا يجوز وصفه بأنه يأتي عليه زمان، أو يحيط به مكان، فكل خلاف يؤدي إلى هذا هو باطل لا يجوز أن يقال.

الشرط الثاني: ألا يعتمد قول من الاقوال، ويعتقد فيه اعتقادا راسخا أن هذا هو الحق، وغيره هو الباطل، فلنا أن نتأول الكرسي أو الاستواء أو غيره، بما نتأوله، ولكن ليس لنا أن نقول: إن هذا هو الحق وغيره

---

[1] بيوض، في رحاب القرآن، 32/12

[2] النجار، عبدالمجيد، الإيمان وأثره في الحياة، ص 27-28

[3] بيوض، في رحاب القرآن، 32/12

الباطل، إذ يمكن أن يكون المعنى ما أدركناه واخترناه، واطمأنت إليه نفوسنا وقد يكون غيره، فإذا سلمنا من هذين الامرين فلا باس من التأويل.

إذن فالتأويل، في نظر بيوض، حتى وإن كان في قضايا العقيدة، إنما هو ضرب من الاجتهاد البشري، قابل للصواب والخطأ، وعليه فإن الأمر واسع، ولا يجوز للمسلم أن يقطع عذر مخالفه ما دام الرأي الآخر لا يؤدي إلى خروج عن قاعدة التنزيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، والقائل به يعتقد تنزيه الله عن صفات النقص ويصفه بصفات الكمال المطلق.

المطلب الثاني: الإيمان بالغيب

يتضمن الغيب كل الأمور التي ستحدث في اليوم الآخر، كما يدخل فيه أمور أخرى تتعلق بالخالق نفسه تبارك وتعالى، كالعرش والكرسي وغير ذلك. يرى بيوض أنه:

"إذا لم يرد في ذلك نقل صحيح فإنه من الصعوبة الخوض في تفسير الآيات التي تتعلق بشؤون الله تعالى الخاصة به، وعلينا الإيمان بها إجمالا دون الخوض في تفاصيلها، فالعرش مثلا لا يعلم حقيقته إلا الله، وهو يقينا هو شيء لن يستطيع البشر أن يتوصلوا إلى إدراك حقيقته أبدا، وكل ما نعلمه أنه خلق من خلق الله تعالى، وأنه أعظم من السموات والأرض، كما قال الله ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة المؤمنون: 86]، أما أين يوجد، وما مقدار عظمته؟ ومن يحمله، كل ذلك غيب مطلق، ليس لنا إلا أن نفوض العلم والأمر فيه إلى الله أولا وأخيرا، وكل ما يزعمه الزاعمون مما ذكروه في بعض الروايات عن وصف العرش ووزنه وكوله، وعرضه باطل لا أصل له، إذ ليس هناك نص من القرآن الكريم ولا من حديث النبي عليه السلام نعتمد عليه في إدراك حقيقة العرش.."[1]

ومثل ذلك يقال في الصور، والنافخ فيه، والوقت الذي يقع فيه النفخ، "إنه غيب مطلق لا يعلم حقيقته إلا الله عز وجل، والذين يتكلمون في حقيقة الصور... رجم بالغيب"[2]، فنحن نؤمن بالنفختين اللتين ذكرهما لله في آيات كثيره، وما وراء ذلك فعلمه عند الله.[3]

كل هذه الامور الغيبية والتي ليست من ضروريات العقل، ولم يثبت فيها نقل صحيح –يرى بيوض- أنه يجب أن يرد الأمر فيها دائما إلى الله مهما اختلف المختلفون، وقال القائلون..[4]، "والنقل الصحيح إنما هو خبر يقيني ورد في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة المتواترة وإلا كان تحكما على الله".[5] ولا شك أن اعتماد الخبر اليقيني في مثل هذه المسائل أجمع للشمل وأذهب للخلاف، وأصبح من الضرورة بمكان إعادة النظر

[1] بيوض، في رحاب القرآن، 12/30-31
[2] بيوض، في رحاب القرآن، 15/484
[3] بيوض، في رحاب القرآن، 8/206
[4] انظر بيوض، في رحاب القرآن، 7/15
[5] بيوض، في رحاب القرآن، 15/140

في فهم مثل هذه النصوص وتفسيرها وفقا لتلك القاعدة التي ذكرها بيوض، لقطع دابر هذا الخلاف الذي لم ينتج عنه إلا القطيعة والبغضاء بين المسلمين.

المطلب الثالث: الإيمان والعمل

تعد قضية الإيمان والعمل من أهم قضايا الاعتقاد في الفكر الإسلامي إذ تنبني عليها كثير من الأحكام في الدنيا والآخرة. "وقد أدرك الشيخ بيوض أنه إذا أريد لحركة الإصلاح أن تنجح في مساعيها فيجب أن تبدأ أولا بتغيير المفاهيم والتصورات، وإصلاح المعتقدات الفاسدة، التي توجه سيكولوجية المجتمع، وقواه النفسية، وتؤطر سلوكاته، قبل التطرق بالإصلاح للجوانب الأخرى من النظم الاجتماعية والجوانب المادية لحياة المجتمع، فالمشكلة –في نظر الشيخ بيوض- في أساسها مشكلة فكرية".[1]

وعليه لا بد من قراءة جديدة لبعض النصوص التي يشير ظاهرها إلى أن الاعتقاد والقول وحدهما كافيان في النجاة من غضب الله وعذابه، لهذا نجد بيوض يلح على أن العمل مكون هام من مكونات الإيمان الثلاثة، وأنه، إي الإيمان، بدون عمل لا قيمة له، وان "كل عقيدة في القلب، لم يكن لها مظهر في الخارج هي عقيدة باطلة لا قيمة لها مطلقا".[2] وأن النجاة في الآخرة ما هي إلا نتيجة للإيمان والعمل معا، وليست للأول منهما، يقول بيوض في تفسير آية 67 من سورة القصص، قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾: "لا يكفي الإيمان وحده بدون عمل صالح، ولا يكفي العمل الصالح إذا لم يكن معه إيمان، أو كان معه عمل طالح لم يتب منه، فلا بد من استيفاء الشروط الثلاثة ليتحقق الفلاح، وضل من ظن غير هذا، فمن طمع أن يدخل الجنة مع عدم التوبة من المعاصي، أو يدخل الجنة مع عدم الإيمان، أو يدخل الجنة بمجرد الإيمان باللسان دون العمل الصالح، فهو ضال مخطيء"[3]

بهذا وحده يتحقق الهدف من الإيمان بالآخرة وهو أن يضبط حياة المسلم بأن يوجهها إلى العمل الصالح، ويمنعها من عمل الشر والفساد، ولا شيء يحذر الناس، كما بقول بيوض، ويمنعهم من الزيغ والانزلاق والخروج عن الجادة إلا خوف الموت، وما بعد الموت، وإذا انعدم هذا الإيمان انفلت عقد الدين وانحل كل شيء ولا يجدي فيه كلام أو توجيه ابدا".[4]

والارتكان إلى آيات القرآن قد يسعف بيوض في تقريره لعقيدة العمل بيد أنه في الحديث الشريف ما يشير إلى خلاف ذلك، كحديث "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة.." الحديث، لذلك فإن بيوض يضع قاعدة عامة وهي أن هذه الأحاديث لابد أن تكون خاضعة لنص القرآن ولا يجوز فهمها إلا من خلاله، وقد تقرر في القرآن أن دخول الجنة لا يكون إلا بالعمل، وعليه يكون المقصود بهذا الحديث من أسلم بعد أن ارتكب كثيرا من الموبقات،" فإنه في اليوم الذي يعلن فيه إسلامه، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه، ويبدأ عمله

[1] بوحجام، محمد قاسم ناصر، منهج الشيخ بيوض في الإصلاح والدعوة، جمعية التراث، القرارة، 1429هـ/2008م،ص 116

[2] بيوض، في رحاب القرآن، 19/9

[3] بيوض، في رحاب القرآن، 466/8

[4] بيوض، في رحاب القرآن، تفسير سورة طه، ص 274

من ذلك اليوم، والإسلام جب لما قبله... أما أن يظن مسلم في وسط الإسلام أن يزني ويسرق ويأكل أموال الناس بالباطل، ويرتكب المحرمات.. ويطمع بعد ذلك أن يريح رائحة الجنة من غير توبة، فهذا بعيد بعد السماء من الأرض". [1]، وقد قدمنا أنه لا بد من تكامل هذه النصوص كلها لتفهم على الوجه الصحيح دون التأثر بالخلفيات الفكرية والمذهبية.

المبحث الثاني: معالجة قضايا الأمة والمجتمع

المطلب الأول : تخلف المسلمين

عاش بيوض فترة هيمنة الاستعمار على الوطن العربي، وسبق أن أشرنا إن من أهداف هذا التفسير هو محاربة الفكر الاستعماري الذي كان من أولوياته مسخ الهوية الإسلامية ليسهل عليه بعد ذلك استعباد المسلمين واستغلال خيرات بلدانهم. وأن ما أصاب المسلمين، كما يعتقد بيوض، إنما هو بسبب تهتكهم وتحللهم ومروقهم من الدين، و يقول: إن مما ينذر بالخطر، أن جيل الشباب جيل متهتك، منحل، مارق من الدين، [2] ولن يتغير حالهم هذا إلا بالرجوع إلى كتاب الله والاحتكام إلى شرعه، ولن تكون لهم قوة وعزة إلا بالاتحاد، والاعتصام بحبل الله. [3]

ويرد على المتشككين في نصر الله : أن الخطأ في فهمنا للإيمان الذي يحقق الله لأهله النصر، فالإيمان الصحيح ليس هو ركعات يصليها المسلم، أو كلمات يتلفظ بها لسانه، ولكن الإيمان عقيدة يصدقها العمل، ويأسف أن يكون من بين المسلمين من يدعو إلى الالحاد صراحة، وينشر ذلك على الصحف والمجلات العربية، بينما اليهود لا يخطون خطوة إلا وصلوا وركعوا، وسجدوا، ودعوا، وقرأوا التوراة، وتحكى عنهم العجائب في استنصارهم بالتوراة، والتضرع إلى الله وهم يؤمنون بالله وإن حرفوا الدين". [4]

ويضيف بيوض، "إن المسلمين بمخالفتهم أمر الله، وارتكابهم المعاصي، لم يأخذوا من الإسلام إلا الجنسية، فهم مسلمون جغرافيا، وليسوا مسلمين على الحقيقة، ولذا فهم لم يحققوا (الجندية لله) التي عناها في قوله (وإن جندنا لهم الغالبون)، والتي هي شرط النصر، فكيف يرجون الغلبة وهم جند للشيطان؟؟ [5]

ويقول بيوض: إن الحق لا يغلب، وإنما يغلب أتباعه إذا لم يقوموا به، كما قال الله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [سورة المائدة: 68]، كذلك يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن [6]، ثم يستشهد بيوض بكلام الشيخ محمد عبده، إن الإسلام محجوب بالمسلمين". [7]

---

[1] ينظر بيوض، في رحاب القرآن، 4/217-225

[2] بيوض، في رحاب القرآن، 8/ 42

[3] بيوض، في رحاب القرآن، 5/221

[4] بيوض، في رحاب القرآن، 16/222-223

[5] أنظر، بيوض، في رحاب القرآن، 14/596

[6] انظر، بيوض، في رحاب القرآن، 13/335

[7] بيوض، في رحاب القرآن، 14/599

ونحن نرى من خلال ما سبق أن بيوض يضع الإيمان والعمل والهزيمة والنصر،، في منظومة واحدة متكاملة، فهي حلقات مترابطة تؤثر كل منها في التي تليها، ولعل هذه القضية هي أهم قضايا أمتنا التي لازمتها زمنا طويلا وما زالت، ولكن الجديد أن يسخر بيوض، كما فعل الشيخ عبده، فهمه لآيات القرآن الكريم، في تشخيص هذا الداء، ثم يناشد المسلمين بصوت عال العودة الى الدين الذي تركوه، وهكذا يستخدم التفسير باعثا على النهضة وإحياء الأمة، ووحدتها.

المطلب الثاني: الوحدة الإسلامية

سيطر على بيوض، وهو يعيش حالة من ضعف المسلمين، هم وحدة المسلمين وشغل باله تفرقهم وتنازعهم، وقد حرص في دروسه خاصة في تفسيره للآيات التي تدعو إلى الوحدة ونبذ التفرق أن يبين "أن القرآن حريص على إظهار وحدة الدين، وهو يبين لنا في آيات كثيرة أن دين الله واحد لا يتعدد، فما شرعه لآدم وبنيه الأولين هو ما شرعه للنبي عليه السلام وأمته، وينهى في كثير من الآيات عن التفرق في الدين، وفي هذا المعنى يقول ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[سورة الشورى: 13]، ويقول﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾ [سورة الأنعام:،159 ويقول ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [سورة آل عمران : 19].[1]

ويقدّم بيوض للمسلمين قاعدة عامة نادى بها كثير من المصلحين، يمكنهم أن يقيموا عليها بناء وحدتهم، وهي "أن الدين واحد في أصوله وقواعده وأسسه، وهو الإيمان بالله وربوبيته وألوهيته وأزليته.. ثم الإيمان بالوحي الذي ينزله الله على رسله من البشر، ثم الإيمان بالأنبياء والرسل، ثم التصديق بالكتب، ثم الإيمان بالملائكة، ثم الإيمان باليوم الآخر... وعليه يجب ألا يكون في الأرض إلا أمة واحدة تدين لله بالخضوع والذلة والعبودية، تعترف بأنها مخلوقة له". [2]

ليس هذا فحسب، بل يذهب في هذه القضية -أي قضية الوحدة- لأبعد من ذلك فيطمع أن تكون هذه الوحدة بين أهل الكتب السماوية جميعها، و أن ما يسمى بالأديان اليوم ما هي إلا طرائق للعبادة وأن الدين الذي نزل به الأنبياء واحد و ليس المراد بالإسلام الشريعة المحمدية، "وإنما المراد بالإسلام ما جاء به الرسل من عند الله من العقائد التي لا تتبدل ولا تتغير...والله تعالى يريد أن يبين لنا أن الدين الذي شرعه الله واحد لا يتعدد، ولا يختلف، ولا يفترق، وأن الصراط الذي شرعه الله للناس وأمرهم بسلوكه لا يختلف بين الأولين والآخرين، ولا يجوز أن يختلفوا فيه ولا أن يخرجوا منه".[3]

ويرجع بيوض اختلاف المسلمين إلى أسباب داخلية وأسباب خارجية، فقد كان للحاقدين والمفسدين الذين دخلوا الإسلام ليس بنية الإخلاص لله وعبادته، وإنما بقصد إفساد هذا الدين، دور كبير في اختلاف

---

[1] بيوض، في رحاب القرآن، 153/5

[2] بيوض، في رحاب القرآن، 202/4-203

[3] بيوض، في رحاب القرآن، 153/5-154

المسلمين وتفرقهم، كما كان لبعض المسلمين أنفسهم أيضا دور في هذا الاختلاف، ويقول: أنه في القرون الماضية دخلت عناصر في الإسلام من الذين يحملون عقائد ضالة قصدا لإفساد الإسلام، فاضطر بعض العلماء المسلمين في تلك الأوقات للدخول معهم في جدال لدفع شبههم، فالمسلمون جروا إلى هذا جرا، لأنهم وجدوا أنفسهم مضطرين للدفاع عن الإسلام، فكانت هذه الفلسفة الجدلية الكلامية...ويذكر بيوض أن من اسباب الاختلاف، التنطع في العلم وشهوة الرد على المخالف بحق أو بغير حق، بما يليق وبما لا يليق، كالذي حدث بين المعتزلة وخصومهم من أهل السنة".[1]

ثم يدعو بيوض المسلمين إلى تجنب هذا الجدل الذي لا فائدة منه إلا إذكاء الخلاف والتفرق، وعليهم أن يسلكوا الطريق الذي سلكه النبي الأعظم، وسلكه الخلفاء الراشدون والصحابة من بعده صلى الله عليه وسلم، حتى يضمنوا السلامة".[2]

المطلب الثالث: موقفه من غير المسلمين

نقصد بغير المسلمين هنا المشركين عامة وأهل الكتاب خاصة، أما موقف بيوض من المشركين فقد أبان عنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ [سورة محمد: 4]

---

[1] أنظر بيوض، في رحاب القرآن، 207/17، وعند تفسير قوله تعالى (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) الشوري: 25 ضرب لذلك مثالا فقال: "يقول المعتزلة: إن في هذه الآية دليل على أن التوبة واجبة على الله، وقال السنيون (أهل السنة)، أخطأ المعتزلة : إنه لا واجب على الله. ولنعرف هذا الخلاف، علينا أن نعلم أن الله تعالى الخالق الرازق، الواحد، القهار،.. لا يجب عليه مطلقا شيء،لأنه لا أقدر ولا أقوى منه سلطانا.. ولكن الله كتب على نفسه اشياء كما قال: (كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) الانعام: 54، ويقول (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) المجادلة: 21، ويقول في وعده (إن الله لا يخلف الميعاد) الرعد: 31، ويقول (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) الفتح: 23.

فمعنى أوجب الله تعالى على نفسه يعني: حكم حكما أبرمه وقضاه، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، وما أراده يكون بإرادته ومشيئته المطلقة، ووعده لا يتخلف، وهو لا يخلف الميعاد، فالله تعالى بنفسه وبإرادته المطلقة قال: إنني أثيب المطيعين وأعاقب العصاة الذين ماتوا مصرين على ذنوبهم غير تائبين، فهو الذي سن هذه السنة،ووضع هذه القوانين التي لا تتبدل لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولذلك فنحن نستطيع أن نقول إن الله أوجب على نفسه في مثل هذه المقامات مثل قوله (كتب على نفسه الرحمة.(

أما في غيره من المقامات فإنه لا يمكن لمسلم أن يجرؤ فيقول: هذا واجب على الله، إن هذا لمن سوء الأدب مع الله.. ولا يسوغ أن نقول إن إثابة المحسنين ومعاقبة المسيئين واجب على الله، وإن كنا نوقن بأن الله كتب على نفسه أن يرحم التائبين، ويعاقب المصرين، كما قال (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) النساء: 17-18

فإذا قال المعتزلة إن الآية تدل على وجوب التوبة على الله، فمعناه أن الله كتب على نفسه –لا أقل ولا أكثر من هذا، ولا يظن فيهم أكثر من هذا، ولكن بعض المتنطعين من أهل السنة ردوا عليهم ردا غير مقبول عقلا، فقالوا إن الله تعالى (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) لا يدل على الوجوب، لأن الآية تدل على المدح، إذا مدح الله نفسه بأنه يقبل التوبة، كما قال عن نفسه (غافر الذنب وقابل التوب) غافر: 3، وقال (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا) طه : 82

حقا إنها صفة مدح يقينا، ولكن ماذا بنو عليها ؟ قالوا: إن الواجب لا مدح عليه، وهنا مكمن الخطل، فقبل أن يكون خطأ فهو خطل في التفكير والرأي لأنه ضلال، وهو من باب قول الناس اليوم (لا شكر على واجب)، فإذا قال السني، لماذا يقول المعتزلي: إنه واجب؟ نقول له: إنه لا يحق أن تقول بالوجوب، وإنما قل أوجب على نفسه، ولكن قولك أيها السني:إن هذا مدح والواجب لا يمدح عليه، هو خطل في التفكير. ترى لماذا؟".(17: 207)

[2] بيوض، في رحاب القرآن، 365-364/8

فقال: قد يتوهم المتوهم أن الله أعطانا الحرية المطلقة لقتل الكفار كلما وجدناهم، وكيفما كان الكافر، مشركا، أو يهوديا، او نصرانيا، حالة الحرب، أو في حالة سلم.. كلا وإنما الذي يحدد لنا الوقت الذي فيه ضرب الرقاب هو قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ وهذا ما يبدو لي ان استشهد به ولم أره في التفاسير.. هذه الآيات تبين وتحدد وقت ضرب الرقاب بوقت الحرب، هكذا نفهم من الآية، وافهموها جيدا لأنها مزلق خطير، إذ ربما يخطئ فيها من لا يتدبر فيقول أنا وجدت كافرا في الطريق فقتلته،...

وليس معنى ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في الطرقات والشوارع والمنازل، وإنما إذا لقيتموهم في صفوف الحرب، واشتبكتم معهم.... فإذا سكنت الحرب ووضعت أوزارها، عاد المسلمون والكفار يختلطون في الأسواق والأماكن، يتبايعون ويتشارون، إلا ما حرمه الله.." [1](18: 426-428 بتصرف

أما أهل الكتاب فقد سبق أن ذكرنا أن بيوض يرى إمكانية بناء بيننا وبينهم وحدة وتواصل بناء على عوامل دينية مشتركة، وقد صرح عند تفسير ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة العنكبوت: 46] بأن أهل الكتاب يتفقون مع المسلمين في أصول الديانات ويختلفون عنهم في عدم الإيمان بنبينا محمد صلى لله عليه وسلم، وكان هذا الاتفاق سببا في معاملتهم المتميزة عن المشركين.[2]

فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى عامة، وهي أمر بالإحسان إليهم إذا تناقشنا معهم، ولا نشن عليهم حربا، وإنما عليهم أن يدخلوا تحت سلطة المسلمين ولا يجبرون على ترك دينهم، يتزوجون، ويرثون، وينتسبون حسب عاداتهم وطرقهم، وكأنهم تحت حكم مستقل بهم، وأكثر من هذا فإنهم لا يجبرون على الخروج إلى الحروب بخلاف المسلمين، وإنما عليهم أن يدفعوا مقابل ذلك جزية، فإذا دفعوها فعلى إمام المسلمين أن يحميهم في أبدانهم، وأبنائهم وأعراضهم، ومن عجز عن دفع الجزية يعفى منها.."[3].

ونحن لو قارنا هذه النظرة التي تدعو إلى التسامح والتعايش ليس مع أتباع الشرائع السماوية فحسب بل بين الإنسانية جميعا، لو قارناها بمن ينظر إلى هذه الأمم أنهم أعداء يجب قتالهم لرأينا البون شاسعا بين عالم ينظر إلى هذا الدين أنه دين قتال وجباية واسترقاق، ويسلب من البشرية حرية الفكر والدين التي كفلها الله لهم، ويقولبهم في قالب واحد لا يقبل الاختلاف، وبين عالم ينظر إلى الدين أنه رحمة للعالمين وبناء على هذا يفسر آيات القرآن الكريم، لا شك أن هذا الأخير يساهم في بناء حضارة إنسانية عظيمة تقوم على عوامل الوحدة الإنسانية، وعلى قيمة الإنسان، وتهدف إلى عمارة الكون والرحمة بمن فيه.

المطلب الرابع: قضايا المجتمع

من مظاهر التجديد عند بيوض أنه اتخذ من تفسير القرآن الكريم وسيلة في علاج أمراض اجتماعية عقدية استشرت في المجتمع أدت بالناس إلى الشرك من حيث لا يعلمون ومن هذه الأمراض، زيارة قبور الأولياء

[1] بيوض، في رحاب القرآن، 18/426-428 بتصرف

[2] بيوض، في رحاب القرآن، 9/207

[3] بيوض، في رحاب القرآن، 9/211

للتبرك بهم والاستعانة بهم في دفع ضر أو جلب نفع، ويذكر في تفسيره أنه تعمد زيارة زاوية سيدي خالد ليلة السابع والعشرين من رمضان وحضر الطقوس التي يقيمها الناس فيها، ورأى ما كان ينكره من ضلال، وقال: " يحق عليهم لعن النبي عليه السلام لأنهم صنعوا ما يضلون به الناس عن سبيل الله، فهم يحجون إليها حجا، ويقيمون فيها العادات والطقوس التي تقام في الحج، فتجد مكانا يطاف حوله كالكعبة، ومكانا فيه عين ماء يشرب منها كزمزم، ومكانا آخر للسعي.."[1].

فهؤلاء جمعوا الكفر من جهتين: الكفر بالإشراك بالله، إذ يقولون من كان له مريض فليأخذه إلى سيدي خالد فإنه يشفيه، وكل من له حاجة يريد قضاءها، فسيدي خالد يقضيها، فهذا شرك وكفر صراح، لأنه تضرع إلى مخلوق... ويتمثل الكفر من جهة أخرى في هذه الولائم التي تجمع كل المفاسد، إذ تأتي العواهر من دور البغاء ويجتمعن بالمئات ويختلط الرجال بالنساء، وتقام أسواق الخمور، وأسواق الفسق، ويعتقدون أن اولئك مغفور لهم ببركة سيدي خالد، أو ببركة سيدي فلان، في أي مكان يقام في مثل هذا الضلال المبين".[2]

كما أنكر أيضا عادة مقيته لا تقل في خطرها على دين العبد المسلم من سابقتها، وهي عادة الذبح للجن الذي يامر به المشعوذون لمداواة مريض مصاب بمرض نفسي أو عقلي، ويتظاهر الكاهن ب"فتح الكتاب" كما يسمى، ويقول للمريض عليك بذبح عنزة أو تيس أو ديك صورته كذا وكذا، حتى يخرج منه الجن الذي يسكنه، أو تحل عقدته إذا كان مربوطا عن زوجته، أو كانت مربوطة عن زوجها، إلى غير ذلك من الأمور.. وحذر الناس أن إجماع العلماء ينص على أن ما يذبح للجن ميتة حرام أكله، وأن الآمر بهذا الذبح ومنفذه عاصيان.، وإذا أكل احد من هذا اللحم، فقد أكل لحم جيفة (أي ميته)، لأنه أكل مما أهل لغير الله به. كذلك الذبح على عتبة الدار.. وكذلك الذبح على حافة البئر... كل ذلك أمور باطلة لا أصل لها.[3]

ونوه كذلك في تفسيره لقوله تعالى ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ [سورة الحج: 12] إلى عادة كانت منشرة في المجتمع تعليق الحروز والتمائم اعتقادا من فاعلها أن تدفع الضر وتجلب النفع، وشبهها بالأصنام التي كان أهل الجاهلية يلجأون إليها، وقال: "ونحن نرى اليوم أمثال هولاء يلتجئون إلى الحروز (أي التمائم التي فيها أسماء الجن والشياطين يعلقها صاحبها يقصد منها النفع ودفع الضر)، والبخور، والجن، لأن إيمانهم ضعيف.. ولو كانت لهم عقول لفهموا أن هذا لا يضر ولا ينفع".[4] كل هذه الطقوس والعادات بجانب أنها قد توصل الإنسان إلى الشرك فهي كذلك تصرفه عن مهمته الإساس التي خلق من أجلها وهي القيام بواجب الأمانة التي أنيط به حملها، من أجل ذلك وجب محاربتها، وقد بذل بيوض في إنكارها جهده إن بالقول أو بالفعل، وكانت دروسه في التفسير مكانا للتصدي لها وللتحذير منها.

---

[1] بيوض، في رحاب القرآن، 125/13

[2] بيوض، في رحاب القرآن، 126/13

[3] بيوض، في رحاب القرآن، 235/11-243 بتصرف

[4] بيوض، في رحاب القرآن، 367/4

المبحث الثالث: الاستعانة بالعلوم التجريبية وتسخيرها في فهم الآيات

انقسم العلماء حيال الأخذ بالعلوم الحديثة في تفسير القرآن الكريم إلى مؤيد ومعارض، واشترط المؤيدون لذلك شروطا أهمها أن تصبح هذه النظريات العلمية حقائق ثابتة غير قابلة للتغير وإلا كان تفسير القرآن الكريم عرضة للتغير والخطأ.[1]

والحق أنه بعدما شهده العالم في العصر الحديث من تقدم في العلم، وتوسعت معرفة البشر بالكون والحياة، والإنسان، واكتشف العلماء بعض ما كان مجهولا قبل مئات السنين، وكان يعد من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، بعد هذا كله أصبح لزاما على من يريد تفسير القرآن الكريم، أن ينظر أولا فيما توصل إليه العلماء من حقائق علمية، خاصة فيما أشار إليه القرآن الكريم من هذه العلوم.

والعلامة بيوض من المفسرين المتأخرين الذين حالفهم الحظ في الاطلاع على جانب كبير من المكتشفات العلمية في العصر الحديث، فلم ير بأسا في الاستعانة بها في تأويل النص مثل تفسير قوله تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾ [سورة لقمان: 10]، بالجاذبية وقال إن "الله تعالى جعل بين الأجرام تجاذبا، حفظ به لكل مكانه، حتى لا يتخلى عن مداره، وكل جرم منجذب من جهتين، ليبقى ثابتا في الوسط.. وهذا ا لذي حفظ الملايين بل الملايير من أجرام السماء، فكانت تدور في أفلاكها ولا تحيد عنها منذ أن خلقت، وهذا ما عبر عنه الله تعالى بقوله (كل في فلك يسبحون)"[2].

ويستشهد في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا ﴾ [سورة فاطر: 9]، بأقوال المختصين من العلماء في علم الرياح والسحب والأمطار، إنه تهب رياح حارة فتثير بخار الماء، وبعد ذلك تهب رياح باردة، فتكثف ذلك البخار، وتجمعه إلى بعضه، فيتكون منه السحاب، ويسوقه الله إلى حيث شاء.[3]

ويرى بيوض "أن في هذه العلوم ما يضيء لنا السبيل لفهم كثير من الآيات في القرآن الكريم، والتي لم نكن نعرفها، والتي لم نكن نفهمها، والتي كانا الأقدمون يفسرونها ولم يكونوا يتصورون كيف تكون الحال كتسجير البحار، وتكوير الشمس، وانكدار النجوم، واصطدام الاجرام والكواكب، ويجعلنا نزداد إيمانا بما ذكر الله تعالى في كتابه فلا ننكره، وكثيرا ما أول المتقدمون بعض الأشياء، تأويلات باطلة، لأن عقولهم لم توصلهم، ولم يشاهدوا ما نشاهده اليوم، وبهذا يفهم القرآن حق الفهم".[4]

ويعترف بيوض أن المفسرين أصبحوا عالة على العلماء المختصين في علم الكون، والحياة، والحيوان، وغيرها من العلوم الحديثة، فقال، وهو يفسر الآية 12 من سورة فاطر ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾

[1] انظر، فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، 249- 274

[2] بيوض، المصدر نفسه، 11/76-77

[3] بيوض، في رحاب القرآن، 13/409

[4] بيوض، في رحاب القرآن، 4/246-247

[سورة فاطر: 12] "ولولا البحر الملح في الدنيا لما أمكن أن يعيش حيوان أو آدمي على ظهر الأرض أبدا، وهذه ما يبينه العلماء المتخصصون والمشتغلون بهذه الفنون، ونحن عالة عليهم بمطالعاتنا- فالأرض تتصاعد منها غازات سامة لا يمكن للإنسان أن يعيش معها أبدا، والذي يلطف من تلك الغازات، ويبطل مفعولها هو البخار الذي يتصاعد من البحار، ووجودها بهذا القدر الكافي الكبير هو الذي جعل جو الارض صالحا لحياة الإنسان والحيوان والنبات، وهذا ميدان من العلم واسع يعرفه اصحابه.. [1]

وعند تفسير ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ [سورة العنكبوت: 41] قال: "ورأيت أن أقول كلمة في العنكبوت مما اطلعت عليه في بعض المطالعات، ونحن عالة على أهل الفن والاختصاص الذين يدرسون علوم الحيوانات وطبائعها، والاطلاع على هذا في إدراك لحكمة الخالق، وكل اطلاع على مثل هذه العجائب يزيد المؤمن إيمانا... فما هو العنكبوت؟ وكيف يصنع بيته؟[2]

على أن بيوض لا يتحمس للتفسير العلمي على إطلاقه ما لم تثبت نظرياته وتتحقق تجاربه، وأمكن التوفيق بينه وبين ما ورد في القرآن، وقال: "إذا أمكن التوافق بين ما ورد في القرآن وما قرره بعض العلماء فحبذا وإلا كان القول الفصل لكلام الله، لأن نظريات العلماء من أقدم العصور ينقض بعضها بعضا، إذ يقرر العلماء الاولون نظرية فيدوم العمل بها ألف سنة أو ألفين، ويعتقدون اعتقادا جازما أنها الحقيقة فإذا بالعلم يتقدم ويقرر أن ذلك الاعتقاد خطأ، وأن تلك النظرية باطلة " (5: 106)"

من أجل ذلك نجده يرفض تفسير الرتق والفتق في قوله تعالى﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ ﴾ [سورة الانبياء: 30]، بنظرية الإنفجار العظيم، (big bang)[3] ويعد هذا ظن وخرص، وليست من الحقيقة العلمية في شيء، وإن كان أغلب العلماء يرجحونه، ويلح بيوض على تفسير الرتق والفتق بأن السماء كانت صماء ففتقها الله بالمطر، وأن الأرض كانت صلبة، ففتقها الله بالنبات، وهو التفسير الذي ذكره المفسرون الأوائل.[4]، ويحذر بيوض من قبول هذا التفسير المنسوب إلى علماء الفلك وقال: إياكم أن تعتقدوا هذا وإن كان أغلب العلماء يرجحونه، وعقب على ذلك بقوله

إن "أكثر ما يكتب عن الغيبيات في أول الخلق في المبدأ والمعاد- غير ما جاء في القرآن- ظنون وتخرصات، لكن الذين يطالعون الجرائد والمجلات وبعض الكتب العلمية تتمكن فيهم هذه الأمور وهذه الأفكار فيعتقدونها وكأنها أنزلت من عند الله، ويغرهم ويخدعهم ذلك حتى تتمكن فيهم هذه النظريات تمكن العقائد.." [5]

---

[1] بيوض، في رحاب القرآن، 441/13

[2] انظر بيوض، في رحاب القرآن، 171/9-175

[3] هذا التفسير هو الذي ينادي به الكاتبون في الإعجاز العلمي، وهو أن الكون بدأ من جرم صغير ثم تحول إلى سحابة من الدخان، وخلق الله من هذا الدخان السماء والأرض. انظر، زغلول النجار، من أيات الإعجاز العلمي، السماء في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1426ه/2005م، ص 97- 104

[4] هذا التفسير هو اختيار الطبري، انظر، الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412ه/1992م، 21/9

[5] بيوض، في رحاب القرآن، 228/16-230

يرفض بيوض أيضا التفسير العلمي إذا خالف سياق الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [سورة النمل: 88]، فقد رد القول بأن مرور الجبال هو إشارة إلى دوران الأرض حول نفسها، وحول الشمس،[1] وقال: "هناك من قال إن المراد بقوله (وترى الجبال..) إشارة إلى دوران الأرض حول نفسها، وحول الشمس، وهذا ما يناسب الصنع والإتقان، وقد مال بعض المفسرين المحدثين إلى هذا.. ولكننا لا نرى- بحسب السياق وحسب المقام- هذا المعنى، فالله تعالى يذكرنا بهذا ويرشدنا إلى كمال قدرته، ويبين لنا خطر هذا اليوم الذي ينتظرنا والذي تسير فيه الجبال كالسحاب، وكل هذا داخل في صنع الله الذي اتقن كل شيء.. قد يقول قائل كيف الصنع والإتقان في الإفناء؟ أي نعم يكونان،.. فإفناء العالم الذي قدره الله لا يتحقق بالفوضى.. فكما خلق الله الكون بنظام وبتدبير محكم، فكذلك يفنيه بتدبير ونظام محكم".[2]

وقد لا يتنافى التفسير العلمي مع السياق لكنه يضيَق المعنى، فإن بيوض يرده ولا يقبله، ومن الأمثلة على ذلك، تفسير البرزخ بين البحار الوارد في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [سورة الفرقان: 53]، فقد رفض بيوض التفسير العلمي المتداول أن البرزخ المقصود في الآية هو الحاجز المائي المتكون من التقاء بحرين، مالحين، أو مالح وعذب،[3] ويرى أن هذا التفسير يضيق معنى الآية، وقال: "لسنا بحاجة إلى ما كنا نسمعه عن بعض المفسرين، أن المراد بقوله (لا يبغيان) هو صب ماء الأودية في البحار فلا يمتزج بمياهه، كلا، ليس هو المراد.. والبرزخ هو قطعة من الارض بين جزيرتين، والمراد به هنا هذا الحاجز الذي جعله الله تعالى بين البحرين حتى لا يطغى أحدهما على الأخر، وحتى إذا كانت هناك حواجز أرضية تفصل بين البحرين، فإنه لا ينقص من جلال هذه الآية العجيبة، وإنما الذي يظن هذا هو صاحب العقل السخيف الذي لا يفهم. فلا ينبغي أن نفهم الفهم الضيق، ونبدأ في البحث عن المكان الذي يلتقي فيه البحران، فلا يطغى أحدهما على الآخر، ونتصور مصاب الأنهار حيث تمتد المياه العذبة مسافة طويلة في البحر مشكلة مسارا مغايرا في لونه للون البحر من غير أن تنقص من ملوحة البحر جزء."[4]

---

[1] يقول بعض الكاتبين في الإعجاز العلمي، "أن حركة الجبال هذه تعود إلى حركة الأرض التي تتواجد عليها، حيث إن قشرة الأرض تطفو فوق طبقة الوشاح ذات الكثافة العالية" انظر، على محمد غصن، أسرار السموات والأرض في القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 2006م، ص 149

[2] بيوض، في رحاب القرآن، 210/8

[3] انظر، فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، د.ت، ص 290-291

[4] بيوض، في رحاب القرآن، 180/7-181

كما يرفض بيوض العدول عن قول المفسرين إلى تفسير جديد خاصة إن كان الأول أقرب إلى الواقع والعلم فمثلا يرى أن إنزال الحديد ليس حقيقيا، كما يزعم بعض المتحدثين عن الإعجاز العلمي للقرآن[1]، وإنما الحديد تكون في باطن الأرض بتأثير التطور الطبيعي للأرض[2].

خلاصة القول أن طريقة بيوض في تفسيره الآيات بالمعارف العلمية الحديثة، طريقة وسط بين الذين يمنعون الأخذ بالمعارف العلمية في التفسير، وبين أولئك الذين يندفعون للأخذ بكل جديد وإن كان ما يزال نظرية قابلة للصواب والخطأ.

المبحث الرابع: التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية

المطلب الأول: التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي هو الذي يجمع فيه المفسر الآيات الكريمة المتعلقة بموضوع واحد، على مستوى القرآن كله، أو مجموعة من سوره كالحواميم مثلا، ويؤلف منها موضوعا واحدا، مترابط العناصر.[3]

يختلف التفسير الموضوعي عن التفسير التقليدي هو أنه لا يعنى بتفسير السورة كاملة، ولا يركز على تفسير الآية وتحليلها، ولكنه يهتم بالنظرة الشاملة لموضوع ما ليخرج منه بحقائق يستنتجها من مجموع الآيات.

يعزو بعض الباحثين إلى أن بداية هذا النوع من التفسير كان في القرآن الثاني الهجري في الكتب التي اختصت بنوع من علوم القرآن مثل كتاب الناسخ والمنسوخ لقتادة (118ه)، ومجاز القرآن لأبي عبيده معمر بن المثنى (210ه) وغيرها من الكتب المشابه[4]، وكان كان للمعتزلة قصب السبق في كثير من العلوم منها النظرة الشمولية للقرآن، فقد نقل أن الجاحظ ألف كتبا منها (النار في القرآن).

وفي العصر الحديث كانت مدرسة الشيخ محمد عبده رائدة في هذا المجال يظهر ذلك من الاستطرادات الكثيرة في تفسير المنار حيث يعقد خلاصة لكثير من السور يجمل فيها موضوعاتها وقضاياها الاساسية[5]، ثم ظهر ذلك بوضوح على يد أمين الخولي (1966) رائد الاتجاه الادبي في التفسير الذي نص صراحة على:

"أن تفسير القرآن سورا وأجزاء لا يمكن من الفهم الدقيق والمعنى الصحيح لمعانيه وأغراضه، إلا إن وقف المفسر عند الموضوع ليستكمله في القرآن ويستقصيه إحصاء فيرد أوله إلى آخره ويفهم لاحقه بسابقه".[6]

بالإضافة إلى مجهود الاستاذ سيد قطب في مشاهد يوم القيامة، والتصوير الفني وفي القرآن، والدكتور محمد عبدالله دراز الذي عرف عنه عنايته بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية في كتابه النبأ العظيم.

---

[1] يقول زغلول النجار، "أصبح من الثابت علميا أن كل حديد الأرض قد أنزل إليها إنزالا من السماء، وليس هذا فقط بل إن الحديد في مجموعتنا الشمسية كلها قد أنزل كذلك إليها من السماء، وهي حقيقة لم يتوصل العلماء إلى فهمها إلا في الخمسينيات من القرن العشرين".
انظر، زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي، الأرض في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1427ه/2006م، ص 127

[2] انظر، بيوض، في رحاب القرآن، 40/12، 278/15

[3] سعيد، عبدالستار فتح الله، مدخل إلى التفسير الموضوعي،، دار التوزيع والنشر الإسلامية، بورسعيد، ط2. 1991م، ص17، (نسخة الكترونية)

[4] مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط2، 1421ه/2000م، ص 20

[5] انظر، رشيد رضا، تفسير المنار، دار الفكر، ط2، د.ت، 16/1

[6] رشواني، سامر، منهج التفسير الموضوعي دراسة نقدية، ص 113، نقلا عن الخولي، الأعمال المختارة، ص 39، دار الملتقى، سورية، حلب، ط1، ط1، 2009م، (نسخة الكترونية)

ولا شك أن الشيخ بيوض، وهو معجب بفكر مدرسة المنار، قد تأثر بهذا المنهج، فكان يجمع الآية بما يبين معناها من آيات أخرى مشابهة، ويقول: «إِنَّ طريقتنا مع كلام الله تفسير القرآن بالقرآن»، و"ما فسر القرآن مثل القرآن"[1]، ويؤكد على أهمية هذه الطريقة في موضع آخر، وأنها هي الطريقة المثلى في الكشف عن حكم القرآن وأسراره، ويقول: «من تأويلات القرآن وتفسيراته ما كان يؤخذ بتقابل الآيات فِي موضوع واحدٍ فتظهر المعاني وتظهر الحكم والأسرار »[2]

وهذه الطريقة لا تقتصر عند بيوض على مقابلة الآية بأخرى مثلها، لكنه يذهب إلى أبعد من ذلك وهو جمع الآيات التي لها صلة بالموضوع قدر ما يسمح به الحال، ويرى أن «على من أراد أن يفهم موضوعًا من المواضيع أن يجمع كلَّ الآيات الواردة فِي نفس الموضوع حتى تجتمع له عناصر الفهم».[3]

وحذّر من نتائج الاقتصار فِي الاستدلال عَلَى آية واحدة والتغاضي عن غيرها، لكون هذا المنهج مُفضيًا إلى الوقوع فِي الخطأ.[4]

المطلب الثاني: الوحدة الموضوعية

للتفسير الموضوعي قسمٌ آخرُ يعنى بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، يرتكز على اكتشاف المحور الأساسيّ للسورة، وفي معرفته عَونٌ على استجلاء معاني آياتها، وعلى الترجيح الصحيح عند احتمال الآية أكثر من معنى، ويعبر آخرون عنها بوحدة النسق وهي " تماسك بناء السورة القرآنية واتساق معانيها المتشعبة التي تتضمنها ضمن غرض محوري واحد دون تنافر أو تفكك" ورغم إشارة الأقدمين إلى أهميتها في النظم القرآني، كالجاحظ (ت: 255)، والباقلاني (ن: 403)، وابن العربي، وقال الرازي (ت: 606) في تفسير سورة فصلت أن "كل من انصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية (رقم: 44) على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من اولها إلى آخرها واحدا منتظما مسوقا نحو غرض واحد"[5]، رغم ذلك كله لم تحظ الموضوعية باهتمام اكثر المفسرين، وفي العصر الحديث لفتت مدرسة المنار الأنظار إلى أهمية هذا الجانب في التفسير، يقول سيد قطب:

"إن لكل سورة من سور القرآن شخصي ة مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعا رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها.ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو[6] "

---

[1] بيوض، في رحاب القرآن، 205/17

[2] بيوض، في رحاب القرآن، 182/111

[3] بيوض، في رحاب القرآن، 344/8

[4] انظر المصدر نفسه، 39/14

[5] الرازي، التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ/1990م، 568/27، وانظر، رشواني سامر، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة نقدية، ص 252 وما بعدها

[6] سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط32، 1423هـ/2003م، 1-28-29

وقد أشار الشيخ بيّوض إلى هذه الطريقة في أكثر من موضع منها عند تفسيره لسورة الشورى، فقال: «من المعلوم أَنَّ كُلَّ سورة من سور القرآن الكريم . طويلة كانت أو متوسِّطة أو قصيرة . إلاَّ وتدور على موضوع يشكِّل وحدة السورة، حَتَّى لكأنَّ السورة كلٌّ لا يتجزَّأ، لها وحدة تجمعها بين مختلف آياتها، من أوَّلها إلى آخرها... والموضوع غالبا ما يبتدأ فيه من أول السورة، إذ يتكلم عنه بشيء من الإجمال، ويكون التفصيل فيه في وسطها، ثم يختم به في نهاية السورة». ثم تحدث الشيخ عن سورة الشورى وقال: إن موضوعها العام هو إثبات الوحي والرسالة ونبوءة الأنبياء، من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم..." [1] واستمر في بيان تفصيل السورة لهذا الموضوع، وفعل مثل ذلك في تفسير سورة الزخرف واعتبرها تفصيلا لما ورد مجملا في سورة الشورى من محاجة المشركين.[2]

الخاتمة

كان ابراهيم بيوض عالم موسوعي مجدد، أفنى عمره في النهوض بأمته وإصلاح مجتمعه، وحارب الاستعمار وبذل في ذلك ماله ونفسه، واتخذ من دروسه في التفسير وسيلة لذلك، ونظر إلى النص نظرة العالم المتمكن الواعي بمتطلبات عصره، ويمكننا أن نلخص مظاهر التجديد في تفسيره بما يلي:

1. يفسر بيوض آيات الصفات وفق قاعدة التنزيه (ليس كمثله شيء) ويختار مذهب التفويض، وقد يأخذ بالتأويل أحيانا بناء على ما تقتضيه اللغة، ويصف الله بصفات الكمال، ويبعد عنه صفات النقص.
2. بناء على أن آيات القرآن الكريم كثيرا ما يقترن الإيمان فيها بالعمل، فإن بيوض يلح على أن العمل مكون هام من مكونات الإيمان الشرعي الثلاثة، وعليه فإن النجاة في الآخرة متوقفة على إصلاح العمل.
3. يرى بيوض أن قوة الأمة وضعفها ونجاحها وفشلها مرتبط ارتباطا تاما بالإيمان والعمل الصالح، وأن الأمة ما نكبت بهذه النكبات واستولى عليها اعداؤها إلا بترك المسلمين العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.
4. يرى بيوض أن الاكتشافات العلمية الحديثة يمكن أن تعين على فهم الآيات الخاصة بهذا الجانب، بشرط أن تتوافق مع السياق، ولا يضيق بها المعنى، وتكون قد ثبتت على أنها حقيقة وليست نظرية يمكن أن تتغير في المستقبل.
5. يهتم بيوض بالتفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية، كمنهج حديث في التفسير به تتجلى حكم القرآن وأسراره.

المراجع

1. بنعمر، محمد، التجديد في التفسير، الأشكال الأنواع، النماذج، موقع ملتقى اهل التفسير، تاريخ المقال: 2015/7/16 تاريخ الاقتباس 2017/11/2

[1] انظر بيوض، في رحاب القرآن، 352/17-354

[2] انظر بيوض، في رحاب القرآن، 390/17-391

2. بو حجام، محمد بن قاسم ناصر، منهج الشيخ بيوض رحمه الله في الإصلاح والدعوة، جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 1429هـ/2008م
3. بوزي، محمد، التجديد ومناهجه في الدراسات القرآنية، مقال منشور على موقع الدراسات القرآنية، http://www.tafsir.net/article/4356، بتاريخ 2012/12/23، تاريخ الاقتباس 2017/3/21
4. بيوض، ابراهيم بن عمر، في رحاب القرآن، تحرير، عيسى بن محمد الشيخ، جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 1430هـ/2009م
5. حمداوي، رشيد، وحدة النسق في السورة القرآنية: فوائدها وطرق دراستها، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، ع3، 1428هـ
6. الخليلي، احمد بن حمد، (د.ت)، بيان أثر الاجتهاد والتجديد في تنمية المجتمعات الإسلامية، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، سلطنة عمان.
7. دبوز، محمد، معجم أعلام النهضة في الجزائر، مطبعة البعث، قسنطينة، 1979م
8. الرازي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ/1990م
9. رشواني، سامر عبدالرحمن، منهج التفسير الموضوعي، دراسة نقدية، دار الملتقى، سورية، حلب، ط1، 2009م
10. سعيد، عبد الستار، المدخل إلى التفسير الموضوعي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، بورسعيد، ط2. 1991م
11. سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط32، 1423هـ/2003م.
12. شريف، ابراهيم، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، دار التراث، القاهرة، ط1، 1982م
13. مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط2، 1421هـ/2000م.
14. ناصر، محمد صالح، الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما، مكتبة الريام، الدار البيضاء، الجزائر، د.ت
15. نجار، عبد المجيد، الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م.
16. عباس، فضل حسن، سناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، د.ت
17. https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B2%D8%A7%D8%A8